إشكالية مصادر التلقي عند الصوفية – الهواتف – أنموذجا

د. طارق زيناي
المركز الجامعي ميلة

الملخص بالعربية:

من المعلوم أن الخطاب الصوفي بوصفه أنموذجا جماليا ونسقا معرفيا، يستند إلى منظومة متكاملة من الخلفيات والأسس والمصطلحات التي جعلت منه خطابا متعاليا ومستقلا بأدواته وتصوراته، من هذا المنطلق ارتأت هذه الدراسة أن تتناول بالبيان والتحليل جانبا من جوانب المنظومة الفكرية للخطاب الصوفي من خلال مصادر تلقي المعرفة عن طريق الهواتف، ودور هذا الأخير في توجيه التصورات والسلوكات عند السالك، وما يقدمه له من حوافز روحية في طريق سلوكه إلى ربه، بوصفه نوعا من الكرامة والتأييد.

Abstract

It is well known that the mystical discourse as an aesthetic model and knowledge format is based on an integrated system of backgrounds, foundations and terminology that made it a transcendent and independent discourse with its tools and concepts. In this sense, this study considered the statement and analysis as part of the intellectual system of Sufi discourse through sources of knowledge And the role of the latter in guiding the perceptions and behaviors of the Salik, and the spiritual incentives offered by him in the way of his behavior to his Lord, as a kind of dignity and support.

نص المقال :

المتأمل للمشهد الفكري للخطاب الصوفي يدرك أنه يستبطن إشكالا عميقا مرتبطا بقضية سؤال المرجعية المعرفية، وقضية مصادر التلقي، ومدى مقبوليته لدى القطاعات الفكرية الأخرى، بوصفه خطابا عرفانيا مؤسِّسا للعقل العربي، له ما للبيان والبرهان من الإطار المفهومي والمصطلحي، ويزيد الأمر أهمية لهذا الخطاب أنه قائم على فلسفة التجاوز لمصادر التلقي المعروفة في سياقاتها العقلية والنقلية، إذ إنه يقوم على المطابقة مع النصوص المؤسسة للخطاب الديني (القرآن والسنة النبوية)، وإن كان الاختلاف واضحا في آليات التعامل مع هذا الخطاب من خلال الاعتماد على مقاربات تأويلية؛ تغدو من خلالها الملفوظات المختلفة علامات تحمل بعدا روحيا متعاليا، ويظهر هذا التجاوز عند الصوفية في مصادر التلقي الخاصة التالية :

1/ الذوق : الذي يعرفه القشيري بقوله : « يعبرون بذلك عما يجدونه من ثمرات التجلي، ونتائج الكشوفات، وبواده الواردات » (1)

ويعرفه عبد الرزاق الكاشاني بقوله : « هو أول درجات شهود الحق بالحق في أثناء البوارق المتوالية عند أدنى لبث من التجلي البرقي »(2)

من التعريفين السابقين يتبين أن الذوق أول حال يجده العارف في طريق الكمال، يتدرج بعده لأحوال أخرى تأتيه تباعا على حسب استعداده الروحي وقابليته لتلقي الأسرار والمعارف، فهو درجة من درجات التجلي والشهود الدنيا، يأتي بعده الشرب، ثم الريُّ؛ الذي هو خاتمة هذا الحال الشريف.

2/ **الوجد** : وهو من المفاهيم المختلف فيها عند الصوفية لاختلاف أحوالهم الروحية ودرجات التمكين والتحقق بالمعارف والأسرار، ولهذا نجد له أكثر من تعريف عندهم، ولهذا ذكر أبو نصر السراج الطوسي في باب الوجد : ((في ذكر اختلافهم في ماهية الوجد))، ثم قال : « اختلف أهل التصوف في الوجد : ما هو ؟ فقال عمرو بن عثمان المكي رحمه الله : لا يقع على كيفية الوجد عبارة؛ لأنها سرُّ الله عند المؤمنين الموقنين » (3)

وقد اجتهد السراج الطوسي في اختيار تعريف للوجد، فقال : « كل ما صادف القلبَ من غم أو فرح، فهو وجد، وقد أخبر الله تعالى عن القلوب : أنها تنظر وتبصر وهو وجدٌ لها، قال الله تعالى: ((فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)) [الحج : 46]، أي وجدها، ففرق بين التي تجد وبين التي لا تجد » (4)

ونقل عن أبي سعيد أحمد بن بشر بن زياد بن الأعرابي رحمه الله قوله عن أول مراتب الوجد : « أول الوجد رفع الحجاب، ومشاهدة الرقيب، وحضور الفهم، وملاحظة الغيب، ومحادثة السر، وإيناس المفقود، وهو فناؤك أنت من حيث أنت » (5)

ونقل الكلاباذي عن أبي الحسين النوري قوله : « الوجد لهيب ينشأ في الأسرار، ويَسْنَحُ عن الشوق؛ فتضطرب الجوارح طربا أو حزنا عند ذلك الوارد » (6)

من التحديدات السابقة يمكن القول إنَّ الوجد وصف غامض، لا تستوعبه العبارة؛ لأنه سرُّ الله المكتوم (عمرو بن عثمان المكي)، يطرأ على قلب العارف في سلوكه، يجد منه فرحا أو حزنا (أبو نصر السراج الطوسي)؛ لاختلاف دواعي هذا الوجد وتعلقه بحال الخوف أو الرجاء، ولهذا الوجد ثمرات وشواهد تدلُّ عليه كرفع الحجاب، ومشاهدة الرقيب، وحضور الفهم، وملاحظة الغيب، ومحادثة السر، وإيناس المفقود (أبو الحسين النوري)، والذوق عندهم مرتبط – في الغالب – بالسماع، يقول عنه أبو حامد الغزالي : « إنه عبارة عن حالة يثمرها السماع، وهو وارد حقٍّ جديدٍ، عقيب السماع يجده المستمع من نفسه » (7) ، ولعل هذا هو ضابط التفريق بين الوجد والكشف والذوق، فالأخيران غير متعلقين بالسماع، وإن كان يمكن ارتباطه بالكشف فعلى سبيل التبعية لا الأصالة كما للوجد، إلا أنَّ كلًّا منهم يحصل لصاحبه به علمٌ يتفاوت بتفاوت طبيعة الحال المتصلة بالعارف وجدا أو كشفا أو ذوقا.

3/ الكشف: وهذا الحال هو من أشرف مصادر المعرفة عند الصوفية، ويعرفه أبو نصر السراج الطوسي بقوله : هو « بيان ما يستتر على الفهم فَيُكْشَفُ عنه للعبد كأنه رأيُ عينٍ » (8) ، أي أن العبد يُكشف له ما كان غائبا عنه من الحقائق، التي لا تدرك بالأبصار، بل يشاهدها كفاحا بعين القلب (البصيرة)، ويدخل تحت الكشف الصوفي جملة من التجليات العرفانية، منها :

1/ رؤية النبي صلى الله عليه وسلم يقظةً أو مناماً، والأخذ عنه.

2/ رؤية الخضر عليه الصلاة السلام والأخذ عنه أحكاماً شرعية وعلوماً دينية، وكذلك الأوراد، والأذكار والمناقب.

3/ الإلهام: وهو تلقي المعارف والحقائق والأسرار من الله تعالى مباشرة دون واسطة، وبه جعلوا مقام الولي فوق مقام النبي؛ لأن الولي يأخذ عن الله مباشرة، بخلاف النبي الذي يُوحى إليه ويُبَلِّغُ عن الله بواسطة ملك الوحي.

4/ الفراسة: التي تختص بمعرفة خواطر النفوس وأحاديثها.

5/ الإسراءات والمعاريج: ويقصدون بها عروج روح الولي إلى العالم العلوي، وجولاتها هناك، والإتيان منها بشتى العلوم والأسرار.

6/ الهواتف: من سماع الخطاب من الله تعالى، أو من الملائكة، أو الجن ، أو من أحد الأولياء ، أو الخضر، سواء كان مناماً أو يقظةً.

من خلال ما سبقت الإشارة إليه من مصادر التلقي عند الصوفية، ستحاول الدراسة أن تخصَّ الهاتف بوصفه خلفية معرفية كشفية مهمة، وحتى يستقيم الطرح فكريا ومنهجيا نحاول عرض الإشكاليات، التي يرُاد الإجابة عنها :

- ما مفهوم الهاتف في المعطى الصوفي؟
- ما هي أوليات الهاتف في تاريخ الأدب العربي؟
- هل للهاتف الصوفي زخم نظري يؤطره؟
- كيف تجلت الهواتف الصوفية، وما هي مدارات تميزها؟

الهاتف : لغة

- جاء في اللسان : « هتف: الهَتْفُ والهُتَافُ الصَّوْتُ الْجَافِي الْعَالِي، وَقِيلَ: الصَّوْتُ الشَّدِيدُ. وَقَدْ هَتَفَ بِهِ هُتَافاً أَي صَاحَ بِهِ. أَبو زَيْدٍ: يُقَالُ هَتَفْتُ بِفُلَانٍ أَي دعَوْتُه، وهَتَفْتُ بِفُلَانٍ أَي مدَحْته. وَفُلَانَةٌ يُهْتَفُ بِهَا أَي تُذكر بجَمال... وَقَدْ هَتَفَ يَهْتِفُ هَتْفاً، وَالْحَمَامَةُ تَهْتِفُ، وَسَمِعْتُ هَاتِفاً يَهْتِفُ إِذَا كُنْتَ تَسْمَعُ الصَّوْتَ وَلَا تُبْصِر أَحداً » (9)
- وجاء في جمهرة اللغة : « [هتف] وهتفت بِالرجلِ أهتف هتفا وهتافا إِذا صحت بِهِ، وهتف الْحمام هتافا إِذا صَوت. وكل مصوت هَاتِف» (10)
- وجاء في الكليات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية) : «كل مُتَكَلم خَفِي عَن الْأَبْصَار عينُ كَلَامه فَهُوَ هَاتِف » (11)

الهاتف اصطلاحا :

ليس في كتب القوم – تقريبا – تعريف واحد منضبط للهاتف، إلا ما أورده أبو حامد الغزالي في إحيائه بقوله : « القلب إذا صفا ربما يمثل له الحق في صورة مشاهدة أو في لفظ منظوم يقرع سمعه يعبر عنه بصوت الهاتف إذا كان في اليقظة وبالرؤيا إذا كان في المنام » (12)

– ومن المعاصرين عرَّفه صادق سليم صادق بأنه « سماع خطاب بواسطة الأذن، يسمع الصوت ولا يرى صاحبه، بمنزلة الأعمى؛ يسمع الخطاب ولا يرى المتكلم به، وقد يكون يقظة أو مناما أو بين ذيْن » (13)

– وعرِّف أيضا بأنه : « مجموعة أحاديث وأخبار وحكايات تحكى عن هاتف من الجن يخبر بشيء مستقبل الحدوث أو غير ذلك » (14)

لقد كثرت الروايات والشواهد التي تذكر هواتف الجن في الجاهلية، يقول محمد إبراهيم الفيومي : « أما الهواتف فقد كانت كثيرة في العرب، ومن حكم الهاتفة أن يهتف بصوت مسموع وجسم غير مرئي، وقد كانت العرب قبل

ظهور الإسلام تقول: إن من الجن من هو على صورة نصف الإنسان وأنه يظهر لهم في أسفارهم وحين خلواتهم وتسميه شقا » (15) والملاحظ أنها تأتي في الغالب على شكل أبيات شعرية من بحر الرجز يقولها الهاتف في أمر من الأمور، فيها من الإحكام والإجادة والإتقان ما يضارع به شعر شعراء الإنس، ما يفتح الباب على القول بإمكانية إدراجها ضمن الأجناس الأدبية القابلة للدراسة – إذا تأكدنا من صحة نسبتها إلى أصحابها وخلوها من شبهة الوضع والانتحال –وقد كثرت الهواتف قُبَيْلَ بعثة النبي صلى الله عليه وسلم بشكل غير مسبوق، فالمطالع لكتب السيرة والتاريخ العربي قبل الإسلام يرى استفاضة الهواتف وكثرتها (16) ، من ذلك على سبيل المثال ما رواه أبو بكر الخرائطي : « قال: حدثني شيخٌ من الأنصار يقال له: عبد الله بن محمود، من آل محمد بن مسلمة، قال: بلغني أن رجالاً من خثعم كانوا يقولون: إن مما دعانا من إلى الإسلام، أنّا كنّا قوماً نعبد الأوثان؛ فبينا نحن ذات يوم عند وثن لنا، إذ أقبل نفرٌ يتقاضون إليه، يرجون الفرج من عنده لشيء شجر بينهم، إذا هتف بهم هاتف من الصّنم فجعل يقول "من الرجز":

يا أَيّها الناسُ ذوو الأَجسامِ ... من بينِ أَشياخٍ إلى غلامِ
ما أَنتمُ وطائشَ الأحلامِ ... ومسندَ الحكمِ إلى الأَصنامِ
أَكلّكم في حيرةٍ نيام ... أَم لا ترون ما أَرى أَمامي
من ساطعٍ يجلو دجى الظلامِ ... قد لاحَ للناظرِ من تهامِ
ذاكَ نبيٌّ سيّدُ الأَنامِ ... قد جاءَ بعد الكفرِ بالإِسلامِ
أَكرمهُ الرحمنُ من إمامِ ... ومن رسولٍ صادقِ الكلامِ
أَعدلَ ذي حكمٍ من الحكامِ ... يأْمرُ بالصلاةِ والصِّيامِ
والبرِّ والصِّلاتِ للأَرحامِ ... ويزجرُ الناسَ عن الآثامِ
والرِّجسِ والأَوثانِ والحرامِ ... من هاشم في ذروةِ السنامِ
مستعلناً في البلد الحرامِ

قال: فلمّا سمعنا ذلك، تفرقنا عنه، وأتينا النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فأسلمنا » (17)

وقد تناولت كتب الأدب كثيرا من هذه الهواتف في سياق حديثها عن الجن أو الكهانة وكل ما له علاقة بالأوابد، ككتاب الحيوان للجاحظ، الذي تحدث في باب فيه : عن من ادَّعى من الأعراب والشعراء أنهم يرون الغيلان ويسمعون عزيف الجان؛ حيث سرد كثيرا من القصص والوقائع والأشعار التي تنحو هذا المنحى، بل نقل نصا عن الأعراب يتعجبون ممن لا يؤمن بالهاتف فقال : « والأعراب وأشباه الأعراب لا يتحاشون من الإيمان بالهاتف، بل يتعجبون ممن رد ذلك » (18) وقال بعدما نقل نصا في ذلك : ((وهذا الباب كثير))، أيضا نجد أنَّ الإبشيهي عقد فصلا عن الهواتف، ومن عجيب ما حكاه عن « أبي عمرو بن العلاء قال: خرجنا حجاجا، فصاحبنا رجل وجعل يقول في طريقه : ليت شعري هل بغت علي، فلما انصرفنا من مكة قالها في بعض الطريق، فأجابه صوت في الظلام: نعم نعم مع حجيَّة، وهو رجل أحمر ضخم في قفاه كيَّة، فسكت الرجل، فلما سرنا إلى البصرة أخبرنا ذلك

الرجل قال: دخل جيراني يسلمون عليّ فإذا فيهم رجل أحمر ضخم في قفاه كية، فقلت لأهلي من هذا؟ قالت: رجل كان ألطف جيراننا بنا، فجزاه الله خيرا، فسألتها عن اسمه، فقالت حجية، فقلت: إلحقي بأهلك » (19)

إنَّ المتأمل لما كتب عن الهواتف – كمصدر معرفي كشفي – في الثقافة العربية، لا يكاد يجد إلا إشارات عابرة في كتب الصوفية في أطر ضيقة كالمناقب والطبقات وقصص الأولياء ، وبعض كتب الردود – الحديثة منها – التي تبين المزالق الفكرية والعقدية للصوفية من خلال تتبع مصادر التلقي عندهم، أما الكتب المؤلفة في هذا الصدد قديما وحديثا، فلا تكاد تخرج عن كتابين أشهرهما كتاب الهواتف لأبي بكر عبد الله بن محمد المشهور بابن أبي الدنيا (ت 281هـ)، الذي قسَّم كتابه إلى ثلاثة أبواب : باب هواتف القبور وباب هواتف الدعاء وباب هواتف الجن، فذكر تحت كل باب جملة من قصص وحكايات الهواتف التي حدثت مع السلف الصالح (القرون الهجرية الثلاثة الأولى)والثاني كتاب هواتف الجنان لأبي بكر محمد بن جعفر الخرائطي (ت327هـ)، الذي ليس فيه أكثر مما ذكره ابن أبي الدنيا من روايات وحكايات للهواتف من العصر الجاهلي حتى القرن الثالث الهجري.

فإذا كانت الهواتف مذكورة مشهورة عند الصوفية كقصص وحكايات تُروى عن الصالحين والعباد والعارفين، في معرض كلامهم عن المناقب والسير والتراجم والكرامات، بين ثنايا الكتب أو في كتب مستقلة –كما مرَّ بنا عند ابن أبي الدنيا والخرائطي – فإن الكلام عنها في إطارها النظري والمفهومي شبه غائب عن المؤلفات الصوفية اللهم إلا كتاب التعرف لمذهب أهل التصوف فقد أفرد لها بابا (الباب السابع والستون) تحت عنوان : في لطائف الله للقوم وتنبيهه أياهم بالهاتف، وليس فيه إلا استعراض لبعض من تلك الهواتف، التي وقعت لبعض السلف، ويزيد الأمر غرابة أن كل المعاجم الصوفية القديمة والحديثة لم تتطرق لقضية الهاتف لا من قريب ولا من بعيد، وهو يعدُّ من بين أهم مصادر المعرفة الكشفية عندهم.

أما التأسيس الشرعي لوجود الهاتف فيطالعنا به الكلاباذي حيث حاول الاستدلال لصحة وجوده، بقوله : « وَيشْهد لصِحَّة حَال الْهَاتِف مَا حَدثنَا مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن مَحْمُود قَالَ حا نصر بن زَكَرِيَّا حا عمار بن الْحسن حا سَلمَة بن الْفضل حا مُحَمَّد بن إِسْحَاق عَن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عَن أَبِيه عَن عَائِشَة قَالَت لما أَرَادوا غسل النَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم اخْتلفُوا فِيهِ فَقَالُوا وَالله مَا نَدْرِي أنجرد رَسُول الله من ثِيَابه كَمَا نجرد مَوتَانا أَو نغسله وَعَلِيهِ ثِيَابه قَالَت فَلَمَّا اخْتلفُوا أَلْقى الله عَلَيْهِم السّنة حَتَّى مَا بَقِي مِنْهُم أحد إِلَّا وذقنه فِي صَدره ثمَّ كَلمهمْ مُتَكَلم من نَاحيَة الْبَيْت لَا يَدْرُونَ من هُوَ أَن اغسلوا النَّبِي وَعَلِيهِ ثِيَابه » (20)

تجليات الهواتف في الفكر الصوفي :

لقد حاول عبد الكريم الجيلي التأصيل للعلوم التي ترد على العبد فرأى أنها لا تخلو أن تكون في وجوه ثلاثة ، اثنان منها تردان على العبد مباشرة عن طريق التعليم والتلقين، إما ممن يُحمد سبيله كعلوم أهل السنة، وإما ممن لا يُحمد كشبهات ومطاعن أهل البدع أما النوع الثالث : القائم على التلقي الإلهامي فيتمثل عنده في المكالمة؛ وهي ما يرد على القلب من الخاطر الرباني أو الملكي، الذي لا سبيل إلى إنكاره « وعلامة مكالمة الحق تعالى لعباده أن يعلم السامع بالضرورة أنه كلام الله تعالى، وأن يكون سماعه له بكليته، وأن لا يقيد بجهة دون غيرها » (21) ويعرف الخاطر الرباني من الخاطر الملكي بقوة الوارد الرباني، وإن كانا في القبول سواء، ومادامت الهواتف تدخل في مسمى

الكشف فهي متعلقة بباب العلم؛ أي أنَّ صاحبها يحصل علما غائبا عنه، وهي ما دامت تؤدي إلى تحصيل علم غائب دون إدراك مباشر فهي تدخل في باب خوارق العادات، وفي هذا المعنى يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : « فما كان من الخوارق من " باب العلم " فتارة بأن يسمع العبد ما لا يسمعه غيره، وتارة بأن يرى ما لا يراه غيره يقظة ومناما، وتارة بأن يعلم ما لا يعلم غيره وحيا وإلهاما أو إنزال علم ضروري أو فراسة صادقة ويسمى كشفا ومشاهدات ومكاشفات ومخاطبات: فالسماع مخاطبات والرؤية مشاهدات والعلم مكاشفة ويسمى ذلك كله "كشفا " و" مكاشفة " أي كشف له عنه » (22)

إذن فالهاتف في نظر العرفان الصوفي كرامة من الله لأوليائه – تثبيتا لهم على دينه وإقرارا بصحة مذهبهم وتنبيها وعاجلة بشرى لهم – يقول القشيري : « هذه الكرامات قَدْ تكون إجابة دعوة وَقَدْ تكون إظهار طَعَام فِي أوان فاقة من غَيْر سبب ظاهر أَوْ حصول ماء فِي زمان عطش، أَوْ تسهيل قطع مسافة فِي مدة قريبة، أَوْ تخليص من عدم، أَوْ سماع خطاب من هاتف أَوْ غَيْر ذَلِكَ من فنون الأفعال الناقضة للعادة » (23)

ولعل الناظر لأفراد الهواتف يجد أن أصحابها في الغالب ذوو حال محمود وسيرة طيبة، ولهذا يرتبط عند الصوفية بحال الصفاء التي يجدها الصوفي في قلبه فيسمع الهاتف في يقظته ويرى الرؤيا في منامه، فيدرك –كشفا – ما أريد له من معرفة أو توجيه أو وعظ طرائق شتى فقد ينبهه الله تعالى بالهواتف أو بالمكالمات والخواطر، ووجه الاختلاف بين الهواتف والمكالمات أو الخواطر، أنَّ الهواتف إدراك لحقائق خارجية تدرك بالسماع المباشر من صوت لا يرُى صاحبه، عن طريق الكشف كمصدر للمعرفة، بخلاف المكالمة أو الخاطر، الذي هو صوت يسمع صاحبه في داخله، عن طريق الذوق كمصدر آخر للمعرفة، وكما أن الهاتف آلته السماع فهو يدخل في جنس المكاشفات الأخرى، التي منها ما آلته الإبصار كالتلقي عن الحضرة النبوية وعن الخضر عليه السلام.

والهواتف الصوفية فهي في الغالب تدعو صاحبها إلى خير أو أنها تزجره عن فعل أو تحذره من أمر أو إخبار بأمر غائب ... بآية قرآنية أو حديث نبوي أو قول مأثور أو حكمة بالغة وغيرها في قالب توبوي تعليمي وعظي، ويكثر عندهم الهاتف في المقابر والخلوات والمساجد يقظة ومناما، هذا وقد روى ابن نعيم الإصفهاني أكثر من عشرة هواتف تهتف بالأولياء، منها قوله : « حدثنا يَحْيَى بْنُ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ، قَالَ سَعِيدٌ: دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ لَيْلَةَ إِضْحَيَانٍ قَالَ: وَأَظُنُّ أَنْ قَدْ أَصْبَحْتُ فَإِذَا اللَّيْلُ عَلَى حَالِهِ فَقُمْتُ أُصَلِّي فَجَلَسْتُ أَدْعُو فَإِذَا هَاتِفٌ يَهْتِفُ مِنْ خَلْفِي يَا عَبْدَ اللهِ قُلْ مَا أَقُولُ قَالَ: قُلْ: « اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّكَ مَالِكُ الْمُلْكِ وَأَنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَمَا تَشَأُ مِنْ أَمْرٍ يَكُنْ» قَالَ سَعِيدٌ: فَمَا دَعَوْتُ بِهَا قَطُّ بِشَيْءٍ إِلَّا رَأَيْتُ نَجَحَهُ » (24)

المتأمل للهواتف المروية عن الصوفية يرى أن أغلبها هي هواتف سمعها أصحابها يقظة، وأكثرها ورودا عندهم ما كانت في الخلوات أو في المساجد، من ذلك ماروه الكلاباذي قال : « قَالَ أَبُو حَمْزَة الْخُرَاسَانِي حججْت سنة من السنين فَكنت أَمْشِي فَوَقَعت فِي بِئْر فنازعتني نَفسِي بِأَن أستغيث فَقلت لَا وَالله لَا أستغيث فَمَا استتممت هَذَا الخاطر حَتَّى مر بِرَأْس بالبئر رجلَانِ فَقَالَ أَحدهمَا للْآخر تعال حَتَّى نطم رَأس هَذَا الْبِئْر من الطَّرِيق فَأتوا بقصب وبارية وهممت أَن أصيح ثمَّ قلت يَا من هُوَ أقرب إِلَى مِنْهُمَا وَسكت حَتَّى طموا ومضوا فَإِذا أَنا بِشَيْء قد دلى برجليه فِي

الْبِئْر وَهُوَ يَقُول تعلق بِي فتعلقت بِهِ فَإِذا هُوَ سبع وَإِذا هَاتِف يَهْتِف بِي وَيَقُول لي يَا أَبَا حَمْزَة هَذَا حسن بجيناك من التّلف فِي الْبِئْر بالسبع؟

قَالَ أَبُو سعيد الخراز كنت فِي الْبَادِيَة فنالني جوع شَدِيد فطالبتني نَفسِي بِأَن أسأَل الله طَعَاما فَقلت لَيْسَ هَذَا من فعل المتوكلين فطالبتني نَفسِي بِأَن أسأَل الله صبرا فَلَمَّا هَمَمْت بذلك سَمِعت هاتفا يَقُول :

وَيَزْعُم أَنه منا قريب وَأَنا لَا نضيع من أَتَانَا

ويسألنا القُوى عَجزا وضعفا كأَنَّا لَا نرَاهُ وَلَا يَرَانَا »(25)

ومنها ما يكون الهاتف مناما، فيجتمع بذلك للصوفي مصدران للمعرفة أحدهما المنام وهو الأصل والثاني الهاتف وهو تبعٌ متضمن في المنام، ويكثر عندهم الهتاف المنامي في المقابر، ومن ذلك مارواه السيوطي « عَن أبي قلَابَة قَالَ أَقبلت من الشَّام إِلَى الْبَصْرَة فَنزلت الخَنْدَق فتطهرت وَصليت رَكْعَتَيْنِ بِاللَّيْلِ ثمَّ وضعت رَأْسِي على قبر فَنمت فَإِذا بِصَاحِب الْقَبْر يشتكي وَيَقُول لقد آذيتني مُنْذُ اللَّيْلَة ثمَّ قَالَ إِنَّكُم لَا تعلمُونَ وَنحن نعلم وَلَا نقدر على الْعَمَل أَن الرَّكْعَتَيْنِ اللَّتَيْنِ ركعتهما خير من الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ثمَّ قَالَ جزى الله أهل الدُّنْيَا خيرا فأقرئهم مني السَّلَام فَإِنَّهُ يدْخل علينا من دُعَائِهِمْ نور مثل الْجبَال » (26) ، ومنها ما يكون في حال بين النوم واليقظة، وهو قليل عندهم.

هذا وقد حاول ابن القيم أن يرجع الهاتف الصوفي إلى مصادره، من خلال تعلقه بأرباب الرياضات، فرأى أنها لا تخرج عن « أحد وجوه ثلاثة لا رابع لها، **أعلاها**: أن يخاطبه الملك خطابا جزئيا، فإن هذا يقع لغير الأنبياء، فقد كانت الملائكة تخاطب عمران بن حصين بالسلام، فلما اكتوى تركت خطابه، فلما ترك الكي عاد إليه خطاب ملكي، وهو نوعان:

أحدهما: خطاب يسمعه بأذنه، وهو نادر بالنسبة إلى عموم المؤمنين.

والثاني: خطاب يلقى في قلبه يخاطب به الملك روحه، كما في الحديث المشهور « إن للملك لمةٌ بقلب ابن آدم، وللشيطان لمةٌ، فلمةُ الملك: إيعاد بالخير، وتصديق بالوعد، ولمةُ الشيطان إيعاد بالشر وتكذيب بالوعد » ثم قرأ ((الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاء وَاللّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً)) [البقرة: 268] وقال تعالى ((إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ)) [الأنفال: 12] قيل في تفسيرها: قووا قلوبهم، وبشروهم بالنصر، وقيل: احضروا معهم القتال، والقولان حقٌ، فإنهم حضروا معهم القتال، وثبتوا قلوبهم » (27) فهذا النوع الأول الذي هو أعلاه –كما قال ابن القيم – يقتضي منه الإقرار ضمنيا ببطلان القول : بالهاتف الرباني جملة؛ الذي يقول به كثير من الصوفية، وإن كان منهم من حاول أن يخفف من حدة هذا الطرح الغالي ويجعله يدخل في باب الخواطر والمكالمات لا في باب الهواتف لأنه من المستبعد أن يسمع العارف كلام الله صوتا ولفظا ومعنى،كما حدث لكليم الله موسى عليه السلام)، ولكن الملاحظ أن المدرسة السلفية – ومنها ابن القيم – لا يقولون بهذا القول لا من قريب ولا من بعيد لتعارضه مع أصول الإسلام المعروفة، التي تنفي نفيا قاطعا كلام الله مع أحد من خلقه – عدا الأنبياء – في الدنيا، إلا بدليل خاص – وهو غير موجود لا في الكتاب ولا في السنة – يقول الحافظ الذهبي مقررا استحالة المخاطبة الإلهية المباشرة للأولياء : « ومن هؤلاء من تخاطبه الهواتف بخطاب على لسان الإلهية أو غير ذلك، ويكون المخاطب له جنياً، كما قد وقع لغير واحد » (28) ، فالذهبي يشير التي تلبيس الجن على الإنس؛ عندما يلقي

بعضهم القول أو المكالمة على أنه خطاب إلهي، وهو غير ذلك، ويشهد لهذا التخريج أن ابن القيم نفسَه جعل من واعظ الله في قلب المؤمن يدخل ضمن هذا الخطاب الأول لكنه خطاب بواسطة مَلَكِيَّةٍ، بين العبد وربه، فيقول بعدما أتى بالدليل الشرعي (29) على إمكانية حدوث الخطاب الإلهي للعبد : « فهذا الواعظ في قلوب المؤمنين هو الإلهام الإلهي بواسطة الملائكة »(30)

أما **النوع الثاني** من الخطابات المسموعة هو : « خطاب الهواتف من الجان، وقد يكون المخاطب جنيا مؤمنا صالحا، وقد يكون شيطانا، وهذا أيضا نوعان:

أحدهما: أن يخاطبه خطابا يسمعه بأذنه.

والثاني: أن يلقي في قلبه عندما يلم به، ومنه وعده وتمنيته حين يعد الإنسي ويمنيه، ويأمره وينهاه، كما قال تعالى ((يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً)) [النساء: 120] وقال ((الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاء)) [البقرة: 268] وللقلب من هذا الخطاب نصيب، وللأذن أيضا منه نصيب، والعصمة منتفية إلا عن الرسل، ومجموع الأمة » (31)

والملاحظ في هذا النوع هو اشتباهه بالنوع الأول، فمن أين للمخاطَب أن يدرك أنَّ الخطاب أو الهاتف الذي خوطب به رباني أو ملكي أو جني مؤمن أو شيطاني، فهذا لعمري مما تزل فيه الأقدام، إلا من عصمه الله، حيث تُروى كثيرٌ من الروايات عن أرباب التصوف نسبة هواتفهم للإلهام الإلهي أو الملكي، وهو في الأصل نزغ من نزغات الشيطان، لأن كثيرا منها تخالف تعاليم الإسلام وأصوله وشرائعه.

أما **النوع الثالث** : **ف** « خطابٌ حاليٌّ، تكون بدايته من النفس، وعوده إليها، فيتوهمه من خارج، وإنما هو من نفسه، منها بدأ وإليها يعود، وهذا كثيرا ما يعرض للسالك، فيغلط فيه، ويعتقد أنه خطاب من الله، كلمه به منه إليه » (32)، وقد ذكر لذلك سببا، يرجع إلى أنَّ « اللطيفة المدركة من الإنسان إذا صفت بالرياضة، وانقطعت علقها عن الشواغل الكثيفة صار الحكم لها بحكم استيلاء الروح والقلب على البدن، ومصير الحكم لهما، فتنصرف عناية النفس والقلب إلى تجريد المعاني التي هي متصلة بهما، وتشتد عناية الروح بها، وتصير في محل تلك العلائق والشواغل، فتملأ القلب، فتنصرف تلك المعاني إلى المنطق والخطاب القلبي الروحي بحكم العادة، ويتفق تجرد الروح، فتشكل تلك المعاني للقوة السامعة بشكل الأصوات المسموعة، وللقوة الباصرة بشكل الأشخاص المرئية، فيرى صورها، ويسمع الخطاب، وكله في نفسه ليس في الخارج منه شيء، ويحلف أنه رأى وسمع، وصدق، لكن رأى وسمع في الخارج، أو في نفسه؟ » (33) بالإضافة إلا قلة العلم واستيلاء الوهم وضعف التمييز، هذا وقد تنبه أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي إلا تلبيس الشيطان على المتصوفة من هذا الباب، فزعم الواحد منهم أنه تكلم مع الله وسمع خطابه، وهي في هذا متوهم ليس إلا، فيقول راويا قصة في هذا السياق : : «عَنْ ابن باكويه قَالَ :سمعت أبا عمرو تلميذ الرقي قَالَ : سمعت الرقي يَقُول : كان لنا بيت ضيافة فجاءنا فقير عَلَيْهِ خرقتان، يكنى بأبي سُلَيْمَان فَقَالَ : الضيافة فقلت : لابني امض به إِلَى البيت، فأقام عندنا تسعة أيام فأكل فِي كل ثَلاثَة أيام أكلة، فسمته المقام فَقَالَ : الضيافة ثَلاثَة أيام فقلت لَهُ لا تقطع عنا أخبارك فغاب عنا اثنتي عشرة سنة، ثم قدم فقلت: من أين ؟ فَقَالَ : رأيت شيخا يقال لَهُ أَبُو شعيب المقفع مبتلي فأقمت عنده أخدمه سنة، فوقع فِي نفسي أن أسأله أي شيء كان أصل بلائه، لما دنوت مِنْهُ ابتدأني قبل أن

أسأله فَقَالَ وما سؤالك عما لا يعنيك، فصبرت حتى تم لي ثلاث سنين، فَقَالَ : فِي الثالثة لا بد لك، فقلت لَهُ إن رأيت، فَقَالَ : بينما أنا أصلي بالليل إذ لاح لي من المحراب نور فقلت : أخسأ يا ملعون فَإِن ربي عز وجل غني عَنْ أن يبرز للخلق ثلاث مرات، قَالَ : ثم سمعت نداءً من المحراب يا أبا شعيب فقلت : لبيك فَقَالَ تحبُّ أن أقبضك فِي وقتك، أَوْ نجازيك عَلَى مَا مضى لك، أَوْ نبتليك ببلاء نرفعك به فِي عليين، فاخترت البلاء، فسقطت عيناي ويداي ورجلاي قَالَ : فمكثت أخدمه تمام اثنتي عشرة سنة، فَقَالَ يوما من الأيام ادنُ مني فدنوت مِنْهُ فسمعت أعضاءه يخاطب بعضها بعضا، وَهُوَ يسبح ويقدس ثم مات » (34) ، ثم قال المصنف معلقا على ادعاء هذا الشيخ مخاطبة الله له، ناسبا هذه المقالة لفرقة المشبهة الذين « يجيزون رؤية اللَّه تعالى بالأبصار فِي الدنيا وأنهم لا ينكرون أن يكون بعض من تلقاهم فِي السكك وإن قوما يجيزون مَعَ ذلك مصافحته وملازمته وملامسته ويدعون أنهم يزورونه ويزورهم وهم يسمون بالعراق أصحاب الباطن وأصحاب الوساوس وأصحاب الخطرات » (35)

وهذه الحالة المرضية – إن صح التعبير – التي تصيب النفس البشرية قد أشار إليها الجاحظ في معرض كلامه عن عزيف الجنان وتغول الغيلان بقوله : « وإذا استوحش الإنسان تمثّل له الشّيء الصغير في صورة الكبير، وارتاب، وتفرّق ذهنه، وانتفضت أخلاطه، فرأى ما لا يرى، وسمع ما لا يسمع، وتوهم على الشيء اليسير الحقير، أنه عظيم جليل، ثمّ جعلوا ما تصوّر لهم من ذلك شعرا تناشدوه، وأحاديث توارثوها فازدادوا بذلك إيمانا. ونشأ عليه الناشئ، وربّي به الطّفل، فصار أحدهم حين يتوسّط الفيافي، وتشتمل عليه الغيظان في اللّيالي الحنادس– فعند أوّل وحشة وفزعة، وعند صياح بوم ومجاوبة صدى، وقد رأى كلّ باطل، وتوهّم كلّ زور، وربما كان في أصل الخلق والطبيعة كذّابا نفّاجا ، وصاحب تشنيع وتهويل، فيقول في ذلك من الشّعر على حسب هذه الصّفة، فعند ذلك يقول: رأيت الغيلان! وكلّمت السّعلاة! ثمّ يتجاوز ذلك إلى أن يقول قتلتها، ثم يتجاوز ذلك إلى أن يقول: رافقتها ثمّ يتجاوز ذلك إلى أن يقول: تزوّجتها!! » (36) ويذكر لذلك أسبابا منها :

- التوحش في الفلوات، وإطالة المقام في الخلاء، مع قلة الأشغال والمذاكرين، يولد نوعا من التفكير المستمر؛ الذي يورث الوسوسة والتخيل.
- ومما يزيد في يقين الأعراب بما تخيلوه، أنهم لا يلقون إلا أعرابيا مثلهم أو عاميًّا « لم يأخذ نفسه قط بتمييز ما يستوجب التكذيب والتصديق، أو الشك، ولم يسلك سبيل التوقف والتثبت في هذه الأجناس قط » (37) ، فيروون له الأخبار والأشعار، فلا يكونون أقل تصديق منهم.
- أن جنس هذه الحكايات كلما كانت أكذب كانت أطرف وأدعى للسماع وأكثر إضحاكا، وكان أصحابه أقرب لمنادمة الخلفاء والوجهاء.

من خلال ما تم إيراد يتبين لنا الهاتف الصوفي هو استمرارٌ طبيعي لسيرورة المخيال العربي منذ الجاهلية، وهو اتصال بين عوالم متباينة؛ الشهودي والغيبي، والبشري والشيطاني والملكي، استطاع أن يجد له محلا من الإعراب في مصادر التلقي الأخرى، لطالما كان معينا لهم في سلوكهم إلى ربهم، دالا على تكريم الله لهم.

الهوامش :

[1] – أبو القاسم عبد الكريم القشيري، الرسالة القشيرية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط01، 2001، ص 108.

[2] – معجم اصطلاحات الصوفية، تح : عبد العال شاهين، دار المنار للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ط01، 1992، ص 181.

[3] – اللُّمع في التصوف، تح : عبد الحليم محمود و طه عبد الباقي سرور، دار الكتب الحديثة، مصر، 1960، ص 375.

[4] – الصفحة نفسها.

[5] – المرجع نفسه، ص 376.

[6] – أبو بكر محمد بن أبي إسحاق بن إبراهيم بن يعقوب الكلاباذي البخاري الحنفي، التعرف لمذهب أهل التصوف، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط01، 1993، ص132.

[7] – إحياء علوم الدين،ج02، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط01، 1992، ص 293.

[8] – اللُّمع في التصوف، مرجع سبق ذكره، ص 422.

[9] – أبو الفضل جمال الدين محمد بن منظور ، لسان العرب ،ج09، دار صادر، بيروت، لبنان، ط3، 1414هـ ، ص 344. مادة [هَتَفَ]

[10] – ابن دريد أبو بكر محمد بن الحسن، ج01، تح : رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط01، 1987، ص 2462.

[11] – أبو البقاء أيوب بن موسى الكفوي، تح : عدنان درويش – محمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط02، 1998، ص 951.

[12] – إحياء علوم الدين،ج02، مرجع سبق ذكره، ص 293.

[13] – المصادر العامة للتلقي عند الصوفية (عرضا ونقدا)، مكتبة الرشد، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط01، 1994، ص 286.

[14] – مقدمة المحقق، ابن أبي الدنيا، كتاب الهواتف، تح: مصطفى عبد القادر عطا، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، ط01، 1993، ص 05.

[15] – تاريخ الفكر الديني الجاهلي، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، ط04، 1994، ص 522.

[16] – يُنظر : أبو الفدا إسماعيل بن كثير، السيرة النبوية، تح: مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1976، ص 341 – 384، تحت باب : في هواتف الجان / أبو الحسن علي بن محمد الماوردي، أعلام النبوة، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، ط01، 1409هـ، ص168 – 172.تحت فصل : هتوف الجن/ أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، دلائل النبوة، ج02، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط01، 1405هـ، ص 17، 110. وغيرها .

[17] – هواتف الجنان، تح : إبراهيم صالح، دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط01، 2001، ص 41-42.

[18] – أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان،ج06، تح : عبد السلام محمد هارون، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط02، 1967، ص202.

[19] – المستطرف في كل فن مستظرف، عالم الكتاب، بيروت، لبنان، ط01، 1414هـ، ص 331.

[20] – أبو بكر محمد بن أبي إسحاق بن إبراهيم بن يعقوب الكلاباذي البخاري الحنفي، التعرف لمذهب أهل التصوف، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط01، 1993، ص169.

[21] – عبد الكريم الجيلي، الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان، ط01، 1997، ص12.

22- مجموع الفتاوى، ج11، تح : عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، 1416هـ / 1995، ص 313.

23- أبو القاسم عبد الكريم القشيري، الرسالة القشيرية، مرجع سبق ذكره، ص381

24- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ج02، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1996، ص 169.

25 – أبو بكر الكلاباذي، التعرف لمذهب أهل التصوف، مرجع سبق ذكره، ص 168.

26 – جلال الدين السيوطي، شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور، تح : عبد المجيد طعمة حلبي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط01، 1996، ص 297.

27 – مدراج السالكين بين منازل أياك نعبد وأياك نستعين، ج01، تح : محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط03، 1996، ص 69، 70.

28- شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي، العرش،ج01، تح: محمد بن خليفة بن علي التميمي، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ط02، 2003، ص134.

29 – الدليل الشرعي هو ما رواه أحمد في مسنده وغيره من حديث النواس بن سمعان عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَلَى جَنْبَتَيْ الصِّرَاطِ سُورَانِ، فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ، وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، وَعَلَى بَابِ صِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ: أَيُّهَا النَّاسُ، ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا، وَلَا تَتَعَرَّجُوا، وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ، فَإِذَا أَرَادَ يَفْتَحُ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ، قَالَ: وَيْحَكَ لَا تَفْتَحْهُ، فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ، وَالصِّرَاطُ الْإِسْلَامُ، وَالسُّورَانِ: حُدُودُ اللهِ، وَالْأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ: مَحَارِمُ اللهِ، وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ: كِتَابُ اللهِ، وَالدَّاعِي مِنْ فَوْقَ الصِّرَاطِ: وَاعِظُ اللهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ » أبو عبد الله أحمد بن حنبل، المسند، ج29، تح: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط01، 2001، ص 182. الحديث رقم [17634]

30 – ابن قيم الجوزية، مدراج السالكين بين منازل أياك نعبد وأياك نستعين، ج01، مرجع سبق ذكره، ص 70.

31- المرجع السابق، ج01، ص 70 -71.

32- المرجع نفسه ، ج01، ص 71.

33- الصفحة نفسها.

34 – جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، تلبيس إبليس، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط01، 2001، ص 155، 156.

35- المرجع نفسه، ص 156.

36- أبو عثمان الجاحظ، الحيوان، ج06، ص250.

37 – المرجع السابق، ج06، ص 251.